من

صفات القرآن الكريم

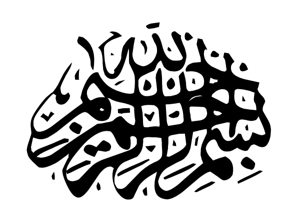
كما وصفه الله سبحانه وتعالى

في كتابه العزيز

مستلّ من شروح فضيلة الشّيخ

أبي عبد الرّحمن عبد الله بن مرعي بن بريك العدني

-حفظه الله تعالى-



- **قال** محمّد بن صالح العثيمين **في رسالتِه** [**أصول في التّفسير** (ص08-09)] :

وقد وصفه الله تعالى بأوصاف كثيرة، تدلُّ على عظمته وبركته وتأثيره وشموله، وأنه حاكم على ما قبله من الكتب.[1]

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: ٨٧]، ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١].[2]

وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥]، ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [الواقعة: ٧٧]، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].[3]

وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١]،[4] ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]،[5] ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]،[6] ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان: ٥٢].[7]

وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].[8]

وقال تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة : ٤٨] (9)

قال عبدالله بن بريك العدني **في** [**شرح أصول في التّفسير لابن عثيمين (د03-04)**] **–معلّقاً- :**

(1)- ومعناه أنَّ من عظمَةِ هذا القرآن العظيم أنَّ اللّه –عز وجلّ- وصفَهُ بأوصاف كثيرَة ،و« كثرَة الأوصاف تدُلّ على عِظم ذلك الشيء » وهذا شيءٌ معروف عند أهل اللُّغة ،فتكثُر صِفات الشيء إذا عظُمَ ،فتعدَّد عند ذلك صِفاته .

أمّا عظَمَةُ هذا القرآن ،فمن ذلك :

- **أنَّهُ مُعْجِزٌ ، لا أحد يستطيع أن يأتي بمثْلِه ،فدلَّ على تفرُّدِهِ بهذا الوصف الذي لا يستطيع أن يأتي أحد لمِثْلِه .**

فعظمتُه –أوّلاً- في فصاحتِه وبيانِه ،وعدم استطاعة الإنسان أن يأتي بمثلِه .

- **ومن عظَمتِه –كذلك- أنَّه جاء بأنواع المعجزات :**
  - **فجاء بخبر من سبق .**
  - **وجاء بخبر ما سيأتي ،ووقعَ بمثْل ما أخبرَ به الربّ سبحانه وتعالى .**

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ ﴾ [الروم: 1-4] ،**قرآن قرأهُ النبي –عليه الصّلاة والسّلام- في مكّة ،وقد غُلِبَ الرُّوم من قِبَلِ الفُرْس ،وكان هذا حدثٌ تاريخي عظيم ينظُر إليه النّاس في المشارق والمغارب بالترقُّب ،فأخبر اللّه – عز وجلّ- بهذا الخبر الذي هو خبر صِدق وحقّ ،فوقع بمثل ما أخبر الربّ سبحانه وتعالى .**

وغير ذلك كثير ممّا يدلّ على عظمَة هذا القرآن .

قال :« وبركتِه » كذلك ،القرآن سببٌ لحصول البركة الحِسِّيَّة والبركة المعنويَّة .

- **البركة المعنويّة ما يكون بهِ من شِفاء ،وما يكون فيهِ من شَرْح الصَّدر ،وما يكون فيه –كذلك- من فتْح باب العلم والفقه ،وغير ذلك من أنواع البركات .**
- **وهكذا بركةً حِسِّيَّة ؛فما من قارئ يقرأ القرآن إلاّ ويَجِدْ في قراءتِه لهذا القرآن بركة لا يجدْها في غيره ،يسَّرهُ اللّه –عز وجلّ- للذِّكر ،وغير ذلك .**

قال:« وتأثيرُهُ » ؛أي تأثير هذا القرآن ،ولهذا شواهد وأمثِلَة كثيرَة ؛يأتي بعض المشركين والنبيّ ﷺ يُصَلِّي بأصحابه فيقول حينَ سمِع بعض الآيات :« كاد قلبي أن يَطِير » وهو مشرك [1] ،وأخذ القرآن بقلبه حتَّى كاد –كما يقول وهو مشرك- قلبُه أن يطير ،وذلك في

1- وهو الصّحابي الجليل جُبيْر بن مُطعِم ،وكان إذ ذاك مشركاً ،والحديث عند البخاري (4854) ،ومسلم (463) .

قول اللّه –عز وجلّ- ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥ ﴾ [الطور: 35] **،فلمّا بلغ هذه الآيۃ قال :« كاد قلبي أن يَطير » وهو مشرك ،لا يعرف معنى تعظيمِ القرآن ،بل هو ممَّن يُبغض القرآن ،ويُبغِضُ النبي – عليه الصَّلاة والسَّلام- في ذاك الحين ،ومع ذلك أثَّرَ فيه القرآن ،حتّى صار ذلك أوّل سببٍ لدخول الإسلامِ في قلبه ولو لم يُسْلِم .**

فالقرآن له تأثير عجيب .

وكم من الصَّحابۃ الذين أسلموا حين قرأوا القرآن ؛وقد مرَّ معنا قريباً في « قصَّۃ أبي بكر –رضي اللّه عنه- » وما جاء عنه بإسنادٍ حسَن أنَّهُ كان يقرأ القرآن وكان سريع البكاء وكان إذا قرأ يجتمع عليه النِّساء والأطفال يستعجبون ويستمتعون بسماع القرآن ،حتَّى ظنّ المشركون أنَّ ذلك سيُؤَثِّر عليهم ،فأرادوا منع أبا بكر ،وحصلَ الذي حصل من ضَرْبه ،وغير ذلك[2] **.**

فالشَّاهد :أنَّ القرآن له تأثير عجيب على القلوب .

وهكذا –كذلك- « شُموله » شمول هذا القرآن لقضايا متعدِّدة مع أنَّه كتابٌ واحد ! وهذا لا يوجد في مثلِه ،تجد في القرآن القِصَصْ والأخبار الصَادقَۃ ،وهو كتابٌ واحد ،ومع ذلك فيه أخبار ليسَت أُمَّۃ واحدة ،بينما تجد تاريخ الأمم كتُبْ كثيرَة في تاريخ أُمَّۃ واحدة ،ولكن هذا القرآن قد تناول أُمماً كثيرَة ،وبقصصٍ مختصَرَة مفيدة ،صادقۃ تضعُ العِبَر ،وتضعُ –كذلك- الإعجاز في هذا الغيْب الذي أخبرَ اللّه –عز وجلّ- به ،فكان مثلما أخبر سبحانه ؛ذُكر أمر اليهود ،وأمر النَّصارى ،وأمر –كذلك- المجوس ،وأمرُ أهل المشرق والمغرب

2- رواه البخاري في [صحيحه (476)] عن عائشۃ أمّ المؤمنين –رضي اللّه عنها- .

،وأمرُ من سبق ،وأمر بعض الملوك وبعض الممالك ،وبعض أخبار الأنبياء ،وغير ذلك .

وهكذا –كذلك- إن جئتَ إلى باب الوعظ فهو كتاب وعظ من الدَّرجة الأولى .

وإن جئتَ –كذلك- إلى العلم فهو كتاب علم –كذلك- من الدَّرجة الأولى .

بل حتّى بعض قضايا الطبّ ،وبعض قضاياَ –كذلك- مسائِل علميَّة محضَة يُخبر بها الربّ –عز وجلّ- فيقَع في مثل ما أخبر ،ويُصَدِّقهُ العلم الحديث الذي هو في هذا العصر ،وذلك يدلّ على شمولِ هذا القرآن لأشياء كثيرَة .

لكن ننتبه في هذا الباب أنَّنا نكون معتدلين ؛لا إفراط ولا تفريط .

لا ننزِّل النَّظريات المعاصِرَة والأشياء الحديثة بأنَّنا لا بدّ أن نجد له نصّ من القرآن ،مثل ما فعل بعض المعاصرين ألَّف تفسيراً فقال :« الطّائرات والصّواريخ ذُكرَت في القرآن » وراح يذهب ويتكلَّف لها –كما يقال- من الألفاظ ما لا يستصيغُه الشَّرع ولا اللّغة .

وهكذا « وهو حاكمٌ على ما قبلهُ من الكتُب » لأنَّه بيّن ما في الكتُب السَّابقَة من التَّغيير والتّبديل ،وما فيها من الصِّدق ،وأخبرنا اللّه –عز وجلّ- بشيء من ذلك ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ ﴾ [المائدة: 45] ،وغير ذلك .

(2)- ويريد –رحمه اللّه تعالى- أنَّ من أوصافِ هذا القرآن أنّه وُصِفَ –كما قال رحمه اللّه- بأوصافٍ كثيرَة ؛فمنها :

- **أنَّهُ وُصِفَ بـ« العَظَمَۃ » ،كما قال تعالى** ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧ ﴾ [الحجر: 87] ،**فالقرآن عظيم ،وقد علِمنا أوجُهاً من عظمَۃِ هذا القرآن .**

وقولُهُ سبحانه ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي ﴾ [الحجر: 87] ،**اختلف أهل العلم في تفسير هذه** ﴿ ٱلۡمَثَانِي ﴾ [الحجر: 87] **:**

- **فمن أهل العلم –كما ذكر ابن جرير رحمه اللّه تعالى- من فسَّرَ** ﴿ ٱلۡمَثَانِي ﴾ [الحجر: 87] **بثَني الفرائِض والحدود ؛أنَّ القرآن ثُنِيَتْ فيه الفرائِضْ والحدود [3] .**
- **ومنهم من فسَّرَهُ أنَّ القرآن كلُّهُ مثاني ؛يُذْكَرَ أهل الجنَّۃ فيُذْكَرْ أهل النّار ،ويُذْكر أهل الإيمان ويُذْكر بعدهم أهل الكُفْر ،ويُذْكَر –كذلك- أهل الطّاعۃ ويُذْكَرْ أهل المعصيَّۃ [4] .**
- **وهكذا –كذلك-** ﴿ مِّنَ ٱلۡمَثَانِي ﴾ [الحجر: 87] **أنَّ القراءۃ تُثْنى ؛أي أنَّ القارئَ الذي يقرأ القرآن يَثْنِي القراءۃَ بعضها على بعض ،يقرأ السُّورة والسُّورة ،والآيۃ والآيۃ ،وهكذا [5] .**

3- وهذا مروي عن التّابعي الجليل سعيد بن جُبَيْر (109/14) .
4- انظر [تفسير البغوي] لسورة الزّمر (الآيۃ 23) .
5- وهذا يُروى عن ابن عبّاس ،والحسن ،وقتادة .انظر [تفسير البغوي] لسورة الحجر (الآيۃ 87) .

- وفُسِّرَت –كذلك- أنَّها « الفاتِحة » فاتحة الكتاب ،وهذا أقرب التَّفاسير وأصحُها لِما صحَّ به الحديث ؛حديث أبي هريرَة –رضي الله تعالى عنه- ،أنَّ النبي ﷺ قال :« ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أمّ القرآن وأمّ الكتاب والسَّبْع المثاني » رواه أبو داود ،عن أبي هريرَة بإسنادٍ حسَن ،وأصلُه في البخاري –كذلك- عن أبي هريرَة :« أمّ القرآن هي السَّبْعُ المثاني والقرآن العظيم » .

فعلى هذا يكون ﴿ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الحجر: 87] سورة الفاتحة ،فهي من أعظم ما في القرآن ،وليسَت هي أعظم !

وأعظم آيَة هي آيَة الكُرْسِي لحديث أُبَيْ :« إنَّ النبي ﷺ سأله :أيّ آيَة أعظم في كتاب الله قال :اللّه ورسوله أعلم ثمّ سألهُ فأخبر بأنَّها آيَة الكُرْسِي » (6).

وإذا كان كذلك ،فـ ﴿ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الحجر: 87] إمّا أنَّهُ من عطف العام بعد الخاص ،وفي هذا تنبيه على أهمّيَّة ذلك الخاصّ ؛وهي فاتحة الكتاب وأمّ الكتاب وأمّ القرآن –كما في الحديث- مثلما « أنَّ مكَّة أمّ القرى » ومعنى ذلك أنَّ القرى ترجعُ غليها ،وهكذا !

قال بعض أهل العلم :« القرآن كلُّهُ مذكورٌ في سورة الفاتحة » (7) يعني على وجه الإجمال ؛أُجمِلَت مسائِل القرآن في سورة الفاتِحة ،فالفاتحة أمّ الكتاب وأمّ القرآن .

6- أخرجه مسلم في [صحيحه (810)] .

7- منهم برهان الدّين البقاعي في [تفسيره] لسورة الفاتحة .

- **وهكذا** ﴿ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ ﴾ [ق: 1] **وُصِفَ من أوصاف القرآن أنَّهُ « مجيدٌ » .**

(3)- وهذه كلُّها من الصِّفات التي أراد أن يذكرَ أمثِلَةً لها –رحمه اللّه تعالى- في بيان بعض صِفات القرآن التي وُصِفَ بها في كتاب اللّه –عز وجلّ- .

- **فمن صفاتِهِ أنَّهُ « مُبارَك » ؛أنزلهُ اللّه –عز وجلّ- مبارَك .**
- **وهكذا –كذلك- من صِفاتِه أنَّه سببٌ للذِّكرى** ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٢٩ ﴾ [ص: 29] .

فهو مبارَك لمن تدبَّر آياتِه ،ينتفِع بذلك ويجعل اللّه –عز وجلّ- له البركةَ ،وهكذا –كذلك- سببٌ للتذَكُّرْ والعِظَةِ ؛فالقرآن يُذَكَّرْ به ﴿ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥ ﴾ [ق: 45] .

وهكذا قال ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ [الأنعام: 155] **،ولاحظ في قولِه** ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ ﴾ [الأنعام: 155] **أي « القرآن » ،من أوَّلِه إلى آخره كتابٌ أنزلهُ اللّه –عز وجلّ- بهذا المعنى ،لأنَّهُ مبارك ،ولأجل ذلك أُمروا باتِّباعِه ،فهو سببٌ لسعادتِهم في الدُّنيا وفي الآخرة** ﴿ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ﴾ [الإسراء: 9] **،كما ختمَ بهذه الفقرَة من الآيات .**

فمن بركتِه أنّه يهدي لأكمل خلُقْ ،وأكمل دين ،وأكمل قول ،وأكمل فِعل في هذه الدُّنيا وفي الدّار الآخرة .

وهكذا –كذلك- من بركتِه أنّه يُدخِل على صاحبه الحياة الحقيقيَّة الحسِّيَّة والمعنويَّة ؛من الرّاحة والطّمأنينَة ،واليقين

والسُّكون ،وهكذا –كذلك- من الصِحَّة والقُوَّة –القوّة النّفسيَّة والقوّة الجسديَّة- .

- **وقول اللّه –عز وجل-** ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ ﴾ [الواقعة: 77] **،كذلك ؛وُصِفَ القرآن بأنَّهُ كريم ؛أي يُكرِم من يقرأ فيه بأنواع المكارم ؛المكارم الحسِّيَّة والمعنويَّة .**

ومرَّ معنا أنَّ هذه الصِّيغَة « صيغة فَعِيل » تدُلّ على ملازمة الصِّفَة ،بخلاف اسم الفاعِل فيدُلّ ذلك على وقوع الوصف لا على ملازمة الصِّفَة ،ولهذا قالوا « كريم » أبلغ من « مُكرم » ،ولهذا يُعبَّر به في مثل هذا المقام .

- **وقوله** ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ﴾ [الإسراء: 9] **،كذلك من صِفات القرآن « أنّه يهدي » أي ؛يوصِل و-كذلك- يتكفَّل لصاحبه أن يكون على التي هي أقوَم في الدُّنيا وفي الآخرة ؛في الدُّنيا بالاستقامة على الصِّراط المستقيم ،فلا يمكن للإنسان أن يستقيم على الصِّراط المستقيم الذي أحبَّهُ اللّه –عز وجلّ- إلاَّ بأن يقتدي بهذا القرآن ،ولا يمكن له أن يَصِلْ إلى المنازل العاليَّة ورضا الربّ سبحانه وتعالى إلاَّ أن يهتدي بهذا القرآن فـ** ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ﴾ [الإسراء: 9] .

وبه نعرف أنّه كلّما قلَّت هِداية المرء قلّت قوامته واستقامته ،في الدّنيا وفي الآخرة ،لا يستقيم في الدّنيا بقدر بُعْدِهِ عن هذا القرآن ،فإن هجرَ لفظهُ ومعناه ،وهجرَ العمل به وتلاوتِه فإنّه ينال الشَّقاء الكامل .

وإذا كان ذلك شيئاً فيكون له من الشَّقاء بقَدر ذلكم الهُجران ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه: 124-126] .

وهنا ،ذِكر « الإنزال » ذكر بعض أهل العلم أنَّ « الإنزال » يُراد به القرآن جملةً واحد ،وأنَّ « التّنزيل » يُراد به نزول القرآن مفرَّقاً ،وذكر بعض الشَّواهد على ذلك من اللُّغة ،وكذلك من الأدلَّة الشَّرعيَّة .

والظّاهر :أنَّ الأمر أوسع من ذلك ؛فاللّه –عز وجلّ- ذكرَ في بعض الآيات معنى « النُّزول » ومعنى « الإنزال » في موضعٍ متقارب .

لكن القاعدة –كما مرّ معنا- « أنَّ اختلاف المبنى يدُلُّ على اختِلاف المعنى » ؛فمبنى « أنزلَ » ليسَ كمبنى « نزَّلَ » ،ولذلك المعنى مختلِف لا شكّ ،لكن ليسَ له معنى واحد وهو النُّزول جملةً فقط ،بل قد يكون بتقدير نزولِه ؛لأنَّ نزول هذه الآيات لن يكُن قد اُكمِلَ إنزال القرآن ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص: 29] ،أُنْزلَ القرآن كاملاً ؟ لا ،لم ينتهِ نزول القرآن ،ولكن المراد :هذا الكتاب الذي أنزلهُ اللّه ومنه هذا الذي نزل ،هو فيه هذه الصِّفات .

وهكذا –كذلك- ،يَصِحّ أنَّ « التَّنزيل » هو للشَّيْء المفرَّق ،وهذا ظاهر ؛ اللَّفظ يدُلّ عليه ،لكنّه ليس دائِماً ،فإنَّهُ قد يأتي على خِلاف ذلك ،مثل قول اللّه –عز وجلّ- ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ

ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ ﴾ [الفرقان: 32] ،**فقيل أنَّ « نُزِّلَ » هنا « أُنزلَ » لأنَّهم أرادوا نزول القرآن كلّه جملَة واحدة كما كان قد نزلَت الكتُبْ السَّابقَة –كذلك- على الأنبياء ،فقالوا :« لماذا هذا القرآن لا ينزلُ جملة واحدة » يعني :من أوّله إلى آخره « وإنّما ينزلُ مُفرّقاً ؟ » .**

فالشّاهد من هذا :أنَّ المعنى قد يتقابل أحياناً ؛هذا مع هذا لزيادة بيان ،أو زيادة معنى آخر ،ولكن لا يعني أنَّ ذلك مضطرد .

(4)- **فمن صفات هذا القرآن كذلك أنَّهُ لو أُنْزِلَ على جبل أصَمّ لكان ذلك سبباً لخُشُوعِه ،وتصدُّعِهِ من خشيَة اللّه –عز وجلّ- .**

وفي هذا :بيان عَظَمَة هذا القرآن ،وحقيقَة ما تحمَّل من معاني مؤثِّرَة على الجمادات فضلاً على الإنسان الذي أعطاه اللّه –عز وجلّ- من الظّاهر والباطن ما هو سبب للاعتِبار واتّعاظ ما يسمع من القرآن .

وفيه دليل :أنَّ الجمادات تفقَه ،وتعلَم ،وهذا ما يعتقدُهُ أهل السُنَّة والجماعة كما دلّت عليه أدلّة الكتاب والسُنَّة ؛فإنَّ أدلَّة الكتاب والسُنَّة تدُلّ أنَّ الجمادات لها معرفَة ،ولها –كذلك- إحساس ،ولكنَّنا لا نفقَه ذلك ،هو بحسَبِ خِلْقَتِها ،كما قال اللّه –عز وجلّ- ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ ﴾ [الإسراء: 44] **،تسبيحهم شيء خاصّ بهم ،ما نعرفُه .**

وهكذا يقول النبي –عليه الصَّلاة والسَّلام- يعرفُ حجراً بمكَّة كان يُسَلِّمُ عليه [8] **،نُؤمن بذلك ونُصَدِّقْ كما أخبرَ به نبيُّنا ﷺ .**

وهكذا هذه الآية ؛ نُؤمن أنَّها حقّ ؛فاللّه –عز وجلّ- لو أنزلَ هذا القرآن على جبَل لخشَعَ وتصَدَّع لِما فيه من العِبَر والعِظات ،وما فيه –كذلك- من الأمر والنَّهيْ .

وقولُه ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾[الحشر: 21] **،يعني :أنَّ هذه الأمثال سبب لعِظَة النّاس وتفكّرهم لو أنَّهم عقِلُوا هذه الأمثال ،فاللّه –عز وجلّ- يضربُ الأمثال لأجل الاتّعاظ والاعتِبار والتفكُّر .**

(5)- **ومعناه :أنَّ من صِفات هذا القرآن أنَّه سببٌ لزيادة الإيمان ؛يزيد أهل الإيمان إيماناً ،وأنَّهُ –كذلك- سببٌ لغِوايَة أهل الضَّلال والكُفر والفُسُوق والفجور ،فإنَّهم لا يزدادون بسماع القرآن إلاَّ مرضاً ورجساً فوقَ مرضِهم ورجسِهم ،لماذا ؟ لأنَّهُم زاغوا فأزاغ اللّه قلوبهم وأبصارهم ،وصاروا لا يرون المعروف معروفاً ،ولا المنكر منكراً ،كما قال سبحانه** ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين: 14] .

8- **أخرجه مسلم في [صحيحه (2277)] عن جابر بن سمرة –رضي اللّه عنه- .**

قال ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ ﴾ [التوبة: 124] **يعني: هذه السُّورة** ﴿ وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ ﴾ [التوبة: 124] **فهو سببٌ لزيادة الإيمان، وسببٌ –كذلك- لاستِبْشار المؤمن.**

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥ ﴾ [التوبة: 125] **وهذا من صفات القرآن كذلك.**

(6)- كذلك من صفات القرآن: أنَّه سببٌ للنَّذارَة، ومن يبلغهُ هذا القرآن؛ فمن بلغهُ القرآن فقد قامت عليه الحُجَّة، فيه من الوضوح والبيان ما تقومُ به الحجَّة ببُلُوغِه، ما من أحد يقرأ القرآن، أو يسمع القرآن إلاَّ وينصَدِعُ قلبُهُ لِما في هذا القرآن من المعاني البليغَة والعِظات –كذلك- المتتابعَة التي؛ كما قال ذلكم الرَّجل المشرك حين سمِعَ تلك الآيات، قال: « كاد قلبي أن يَطِير » ، كادَ قلبُه أن يَطير وهو مشرك كافر ليس بمؤمن! لكنَّه كما قال الله –عز وجلّ- ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ ﴾ [الأنعام: 19] **، فكلّ من بلغَهُ القرآن ولو كان كافراً إذا تأمَّلَهُ فإنَّه يقَع له الإنذار؛ أي إذا تأمّلهُ وعرفَ معناه يقَع له الإنذار، وتكون به العِظَة، فهذا من صفاتِ هذا القرآن.**

(7)- كذلك، من صفات هذا القرآن أنَّهُ يُجاهِد فيه الكُفَّار؛ فالكفَّار يُجاهَدون بالسَّيْفِ والسِّنان، ويُجاهَدون –كذلك- بالحُجَّة والبُرْهان.

ومن الحجَّة والبرهان « القرآن »؛ القرآن من الحجَّة والبرهان، بل أقوى حُجَّة وأقوى بُرْهان، كما قال سبحانه ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ ﴾ [الأعراف: 3] .

فالجهاد جهادان :

1- **جهاداً حِسِّياً .**

2- **وجِهاداً معنوياً .**

ومن « الجهاد المعنوي » ما يكون بالقرآن وبالوحي الذي أُنزلَ عليه – عليه الصَّلاة والسَّلام- .

(8)- وهنا « نزَّلنا » تأتي بمعنى التَّفريق، ظاهِرَة ! فالكتاب نُزِّلَ مُفرَّقاً تِبياناً لكلِّ شيء، كما قال سبحانه في الآية الأخرى ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢ ﴾ [الفرقان: 32] ، **يكونون في غزوة من الغَزَوات يُصِيبُهُم شيء من الخوف، أو يُصيبُهُم –كذلك- شيء من الشِدَّة فتَنزلُ عليهم من الآيات ما تُطَمْئِنُ قُلُوبَهُم، وتُثَبِّتهُم، وتزيدهم إيماناً وقُوَّة .**

وهكذا –كذلك- تمُرّ بهم مِحنَة، فيَكشِفُ اللّه –عز وجلّ- عنهم ذلك بنُزول آيات .

وهكذا –كذلك- يحصُلُ سؤال، فيُنزلُ اللّه –عز وجلّ- آيات جواباً لذلكم السُّؤال، وهكذا ينزلُ القرآن لحِكمَةٍ من اللّه سبحانه وتعالى تِبياناً لكلِّ شيء ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩ ﴾ [النحل: 89] .

فمن صِفات القرآن؛ أنَّه نُزِّلَ مُفَرَّقاً على النبيّ -عليه الصَّلاة والسَّلام-، وبَقِيَ -كذلك- بهذه المعاني الموجود في ثنايا الكتاب العزيز تِبياناً لكلِّ شيء، فما من شيءٍ يحتاجُه النّاس إلاَّ وذُكِّر للنّاس في هذا الكتاب العزيز منه حُكماً، وهذا إمّا على وجه الإجمال وإمّا على وجه التَّفصِيلْ، وليسَ كلُّهُ على وجه التّفصيل؛ ننتبه لهذا؛ بعض النّاس قد يظُنّ أنهَّ القرآن يُذْكر فيه كلّ شيء على وجه التّفصيل، وهذا خطأ، وليس هذا بإعجاز، وليس هذا ببيان وبلاغة، بل الأبلَغ أن يكون كتاب وجيز، ومع لك مبيِّنْ لكلِّ شيء .

فمنه ما يُبَيَّن على وجه التَّفصِيل الذي به يكون مثالاً يُقْتَدى به لنظائِره؛ من فوائد التّفصيل أنَّه يُقْتدى به لنظائِره، فيكون قياساً يُقاسُ عليه، فتُجمع المتماثِلات بعضها ببعض .

ومنه -كذلك- حصول الحِكمة السَّابِقَة في نزوله، والحكمة -كذلك- اللاَّحقة في الاعتِبار بسبب ذلك النُّزول؛ نزلت آيات في « قصَّة الإفك »، هذا من التّفصيل الذي حصل به من الحِكمة ما حصل في ذاك الزَّمان، ثمَّ حصل به -كذلك- ما حصل من الاتِّعاظ والعِبْرَة بأنَّ اللّه -عز وجلّ- لا يُضِيعُ المؤمنين، وأنَّ اللّه -عز وجلّ- مع الصَّادقين، وأنَّ اللّه -عز وجلّ- كذلك يرُدّ كيْد الكافرين والمنافقين والمجرمين في نُحورهم، وأنَّه سبحانه لهم بالمرصاد؛ يُمهلُ ولكنَّه لا يُمهِلْ .

فهي شواهد عيان، يُثَبِّتُ اللّه -عز وجلّ- بها الإيمان لأهل الإيمان على مرِّ العُصُور إلى أن يَرِثَ اللّه -عز وجلّ- الأرض ومن عليها .

وهكذا –كذلك- ما أُجمِلَ من آيات الكتاب ما فيه –كذلك- تبيان لكلِّ شيء .

ففي هذا نعرف أنَّ النّاس في هذا طرفان ووسط :

- **من يظُنّ أنَّه « تِبيان لكلّ شيء » بمعنى تفصيل ،فهذا خطأ ،أو**

حتّى بالإجمال ،فيُريد بذلك أن يستخرج تفاصيل ما في الدّنيا على أعيانها موجودٌ في القرآن ،وهذا خطأ ،ليس كلّ ما في الدّنيا نجِدهُ في القرآن ،لكن أهمّ ما يحتاج إليه النّاس في الدِّين والدّنيا بُيِّنَ لنا حكمهُ في القرآن ،كما قال سبحانه ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: 38] .

- **وهكذا طرفٌ آخر على خطأ ؛يظُنّ أنَّه لا يمكن أن يكون ذلك**

في القرآن فيجعلهُ فقط –مثلاً- في القضايا الدِّينيَّة المجملة ،وهذا خطأ ،بل هو في القضايا الدِّينيَّة جملةً وتفصيلاً ،لكنَّه في الدَّليل الخاص والدَّليل العام ،وفي –كذلك- كلِّيات القضايا الدّنيويّة بالدّليل الخاص والعام بما يكون به النَّفع .

(9)- وكذلك هذه الآية أوردها –رحمه الله تعالى- ليُثْبت ما ذكره –رحمه الله تعالى- مُجملاً من أنَّ القرآن وُصِفَ بأوصافٍ كثيرَة تدُلّ على عظمتِه وبركتِه ،وتأثيره وشُمولِه ،وأنَّه حاكمٌ على ما قبلَهُ من الكتُب .

ففي هذه الآية أنَّ القرآن أُنزلَ بالحقّ ﴿ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: 48] **يعني ؛ممّا سبق من الكتُب ،فالمراد بـ** ﴿ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ [المائدة: 48] **هنا الكتُب المنزَّلَة ،فالمراد به جنس الكتاب المنزَّل .**

﴿ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ ﴾ [المائدة: 48] **ومعناه: أنَّه ناسِخٌ لِما نُسِخ ،ومُحكِمٌ لِما كان لم يُحكم ،وغير ذلك ممَّا في هذه الشَّريعَة التي فيها ما لم يكُن من قبل .**

فالدّين المقبول الذي يقبلهُ اللّه –عز وجلّ- من النّاس هو دين « الإسلام » وما أنزلَ في هذا القرآن ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ [آل عمران: 19]، ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥ ﴾ [آل عمران: 85] **،والإسلام هو القرآن والسُنَّة ،ولهذا قال** ﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ ﴾ [المائدة: 48] **؛يعني: بين أهل الكُتُب الذين نُزِّلَ عليهم الكتُب من قبل وهو « اليهود » و« النَّصارى » .**

- **قال** محمّد بن صالح العثيمين :

والقرآنُ الكريمُ مصدرُ الشريعةِ الإسلامية التي بُعِثَ بها محمدٌ ﷺ إلى الناس كافَّة، قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١﴾ [الفرقان: ١]، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٌ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ شَدِيدٍ ٢﴾ [إبراهيم: ١، ٢].

والمعنى: أنَّ من وصف القرآن أنَّه مصدر للشَّريعة الإسلاميَّة ،فليس في الشَّريعَة الإسلاميَّة مصدر إلاَّ ما أنزلَ اللّه من الكتاب وهو « القرآن » ،والسُنَّة « ألا إنِّي أُوتيتُ القرآن ومثلَهُ معه » .